والسنبل وغير ذلك ثم يوضع في الشمس اياماً. وقد وجد المسيو جكمين (Jacquemin) تلميذ العلامة پستور طريقة سهلة لصنع شراب العسل فانهُ يعمد الى حراثة خميرة الشراب فيذرُّها في العسل المخفف فينال شراباً من العسل طيباً يباع عند الخمَّارين يشبهُ بطعمهِ ولونهِ خمر شمپانية الشهير

٧ وقد جعل بعض الكيمويين يصطنعون خمراً بل اصنافاً من الخمر (œno - meles) يتَّخذونها من العسل فمن يشربها لا يشكّ في انها احدى الخمور المشهورة المعصورة من الجفنة. وقد اشتهر في صنعها المسيو پيكار (Péquart)

٨ اما المسيو فلندر (Flandre) التركي تقطير الخمور في مدينة ريمس فانهُ توصَّل الى ان يصفي العسل من كلّ شوائبهِ فيجعلهُ كالماء الزلال ويصطنع منهُ اشربة غاية في اللذة. وفي السنة الماضية تمكَّن من تقطير العسل فنال منهُ مُسكراً كالعرق لا يختلف عنهُ شيئاً

هذه بعض منافع العسل سردناها هنا للقرَّاء ليروا ما في مزاولة تربية النحل من الجدوى. لاسيما وان سواحلنا واعطاف جبالنا توافق ايَّ موافقة اصطناع العسل الطيب لاعتدال هوائها ووفرة زهورها. فاذا اتَّسعت هذه التجارة اتت للبلاد بارزاق جديدة ومنافع عديدة. وفَّق الله الاهلين الى كلّ عمل نافع ومشروع مفيد

مجلَّة الضياء ولغة الجرائد

لجناب الكاتب الفاضل رشيد الخندي الشرتوني محرِّر البشير ومدرّس الخطابة في كليَّة القديس يوسف

كتبنا في العدد الثالث عشر من مجلَّة المشرق كلاماً تحت العنوان السابق ذكره وقد اثبتنا فيهِ بعض ما خطر لنا من الملاحظات على حضرة رصيفنا اللغوي الشيخ ابرهيم اليازجي صاحب مجلة الضياء في ما انتقدهُ على كتبة الجرائد وكنَّا نتوقَّع من كرمهِ ولاسيَّما بعد أن اعلن مراراً كلفهُ بخدمة اللغة وتنزيه الاقلام عن شوائب الخطإ ان يُقابل ملاحظاتنا بمثل ما قابلها بهِ كثيرون من جلَّة اهل الادب والفضل لاننا اسندناها الى نقول أيمة اللغة الذين يُعوَّل عليهم عند الاختلاف. ولكن جاءنا الجزء

الثاني والعشرون من مجلة الضياء الموما اليها حاوياً عكس ما كنّا نأمل فقد قال فيه حضرة الشيخ ما نصهُ :

« قبل ان نمسح القلم من هذا الفصل لا بُدَّ لنا من ذكر أمر فاجأتنا بهِ احدى المجلّات الأدبيَّة بما لم نتوقّعهُ ولعل ذكرهُ لا يخلو من فائدةٍ وتبصرة. وذلك ان بعض رصفائنا الالبّاء توهم اننا نريد من هذا البحث مناقشة اصحاب الجرائد فقام يردّ علينا ويتسخّل الحجج والاعذار تصحيحاً لبعض ما نبهنا عليهِ من الاغلاط — ولعلهُ توخى منها ما كان قد اتّفق لهُ السقوط فيهِ — فكدَّ ذهنه وأسهر جفنه في البحث وتقليب الصحف ثمَّ جاءنا بامور حاصلها تخريج بعض تلك الاوهام على بعض المذاهب الساقطة واحالة بعضها على بعض اللغات المتروكة وتوجيه بعضها على وجوهٍ من التأويل والمجاز مما نحن اعلم بهِ (!!). ولو ذهبنا الى التخريج كما يريد هذا الاديب لما كتبنا في هذا المعنى حرفاً اذ قلّما تجد تركيباً مخالفاً للصحّة الّا ولهُ وجهٌ يُردّ اليهِ. على ان التخريج انّما يُنحى في ما يصدر عن قائلهِ سهواً او لضرورةٍ لا في ما يرتكب عن جهل او في سعة من اجتنابهِ ولا على ان يُجعل قاعدةً يُسوَّغ بها ركوب الشطط ثم تتكلّف لهُ الاعذار الباردة والحجج الواهنة وهذا القدر كافٍ في هذا المقام والسلام على من اتّبع الهدى »

نقول أمّا كون الشيخ لم يكن يتوقّع ما ابديناه لحضرتهِ من الملاحظات فسببهُ انّهُ كان على يقين من صحّة انتقاداتهِ فلا عتب عليهِ ولكنّهُ يؤاخذ على استمرار هذا اليقين بعدما ابنّا لهُ بالدليل الساطع انّهُ لم يقع في بعضها مواقع الصواب. وقوله اننا كددنا الذهن وأسهرنا الجفن في البحث وتقليب الصحف فهب انّهُ صحيح أيحقّ لهُ ان يلومنا على الاشتغال في خدمة اللغة واعمال الرويّة والبحث في مسائلها وقوفاً على حقائقها. أو ليس حضرتهُ ايضاً يكدّ ذهنهُ ويتأبّب الصحف للبحث عن الامور اللغويّة التي لا تُستفاد الّا من المطالعات. ومع ذلك فانَّ دعواه هذه غير ملاقيةٍ للواقع لان أحد الاصدقاء عرض علينا ذات يوم مجلّة الضياء وسألنا رأينا في ما تنتقدهُ على لغة الجرائد فتصفّحناه الماماً وبدون كدّ ذهن واسهار جفن بدت لنا بعض مؤاخذات فتناولنا في الحال كتب اللغة التي بين ايدينا فوجدنا انها تصوّب ظنّنا فبادرنا الى كتابة فصل في مجلّة المشرق نعرض فيهِ ما تأكّدناهُ فكان نصيبنا من حضرة الشيخ انهُ وصفنا — ولكن دون ايراد أقلّ دليل — بكوننا « نتمحّل الحجج والاعذار الباردة

ونخرج بعض تلك الاوهام على بعض المذاهب الساقطة » الى آخر ما هنالك مما لم نكن نتوقعهُ من ادبهِ

وقولهُ اننا توخينا تصحيح الاغلاط التي اتفق لنا السقوط فيها فنجيب عليهِ اولًا اننا كغيرنا من الناس عرضة لارتكاب الشطط وليست العصمة الَّا لله تعالى باري الاكوان فلو سقطنا في غلط ثم بان لنا انهُ غلط لا نخجل من الاعتراف بهِ علماً منا بان الاعتراف بالخطإ مزيَّة حسنة تكسبنا في عين الشيخ وغيرهِ اعتباراً فان الاصرار على الشيء مع وضوح الدليل على نقيضهِ عنادٌ ومكابرة مذمومان

وثانيًا ان ما يحسبهُ الشيخ غلطاً ليس غلطاً بل هو الصواب بعينهِ وثالثاً نوصف بما لم تأتِهِ نعيد بعض ما سبق لنا ذكره من الملاحظات حتى يتأكَّد القرَّاء ان دعوى الشيخ علينا خالية من دليل :

— كان انكر الشيخ استعمال حوَّر بمعنى نقَّح وهذَّب قائلًا ان أصل معناها في اللغة التبييض . فاجبناه ان الكتبة يعرفونها بهذا المعنى ولكنَّهم ينقلونها منهُ الى المجاز مريدين بها اعادة النظر والمراجعة تشبيهاً لذلك بتبييض الثوب فاين يرى اننا أوَّلنا « تأويلًا فاسداً » ؟ . أما يعلم انهُ لو سُدَّ باب المجاز في وجوه المتكلِّمين والكاتبين لضاقت عليهم مذاهب التعبير عن كثير مما يريدون ؟ . أما يرى ان نقَّح وهذَّب اللتين يريد اقامتهما مقام حوَّرها منقولتان عن حقيقة معناها الى معنى الاصلاح والاخلاص ؟ وهل يحسب ان نقل اللفظ الى المعنى المجازي يجب ان يكون مدوَّناً في كتب اللغة ؟ فان ذهب اليهِ وجب حرمان كلّ متأخر من هذه النعمة التي تمتَّع بها المتقدّمون

— قال الشيخ ايضاً ان استأسر بمعنى استسلم ولا ترد بمعنى أسر فاجبناهُ ان قولهُ منقوض بما رواهُ المطرّزي الشهير في كتاب المغرب حيث اورد حديث عبد الرحمن وصفوان وهو « انهما استأسرا المرأتين اللتين كانتا عندهما من هوازن » فهل يحسب الشيخ هذا « وهماً او حجَّةً واهنة » ؟

— انكر الشيخ ايضاً قولهم « فعل هذا لمصلحة أهل جلدتهِ يريدون قومه واهل جيله » وعنَّف الكتبة جدًّا على هذا الاستعمال قائلًا انهم يتناقلونها بعضهم عن بعض من غير بحث ولا تنقيب وبعد ذكر الاصل فيها كما نقلناه عنه في مقالتنا السابقة ختمهُ بقولهِ « لا معنى ان نقول اهل جلدة الانكليزي مثلًا واهل جلدة الفرنسوي

والالماني لان لكل هؤلاء جلدة واحدة »

أمَّا نحن فأوردنا من كلام التاج ما يثبت عكس مدَّعى الشيخ وهو « ومما يُستدرك عليهِ (اي القاموس) قومٌ من جلدتنا اي من انفسنا وعشيرتنا » او بالحري من قومنا واهل جيلنا فاين يرى الشيخ هنا اننا « أحلناه على لغة متروكة وعذر بارد » كما يقول واذا كان لا يُعوَّل على نصوص اصحاب المعجمات ومشاهير البلغاء في مثل هذه المسائل فعلى من المعوَّل يا ترى ؟ ومن لهُ الحكم فيها ؟

والظاهر ان الشيخ ذهل ما كان قد خطَّهُ بقلمهِ في الجزء الرابع من مجلَّتهِ في الصفحة ١٠٤ منها عند كلامهِ على غوائل الحروب حيث يقول « وقد فُقدت من الانسان عاطفة الرقة والحنان فانقلب وحشاً ضارياً ينتضّ على ابن جلدتهِ فيمزقهُ كل ممزّق . . الخ » فما معنى « ابن جلدتهِ » هنا سوى اخيهِ في الانسانيَّة كيفما كانت جلدتهُ سوداء او بيضاء او صفراء ؟ . اوأيت كيف ان الشيخ يستعمل ابناء جلدة الانسان لاهل جيلهِ بل لجميع اخوانهِ في البشريَّة دون تفريق في مسألة الجلدة وينكر استعمالها على غيرهِ . أفما كان ينبغي ان يجتنب ما ينتقدهُ على سواه ؟ ولا اخالهُ هنا يقول اننا « تكلَّفنا عذرًا باردًا »

— انكر حضرة الشيخ وجود رحوم في اللغة بمعنى رحيم اي راحم فخالفناه في ذلك بالاعتماد على ما قرأناه في لسان العرب لابن منظور الذي يقول « رحيم فعيل بمعنى فاعل كما قالوا سميع بمعنى سامع وقدير بمعنى قادر وكذلك رجل رحوم وامرأة رحوم » ومعلوم ان لسان العرب هو المعوَّل عليهِ في المسألة فأين « التمحُّل » ؟

— قال الشيخ ان خَصْم لا يُجمع على أخصام بل الصواب جمعهُ على خصوم . فاوردنا كلام تاج العروس وقد جاء فيهِ ما نصهُ : « الأخصام جمع خَصيم ككَتيف وأكتاف او جمع خَصْم كفَرْخ وأفراخ او جمع خصيم كشهيد وأشهاد » فهل يحسب هذا « تخريجًا او اعتذارًا او كلامًا ساقطًا » ؟

— خطَّأ حضرة الشيخ لسان الدين بن الخطيب في قوله « جدَّدنا كربها واستوعبنا حرقها وخَرْبها » فادَّعى ان خَرْب بالجزم لا وجود لهُ . فأتينا اذ ذاك بنصّ كلام الفيروزابادي الذي يقول في قاموسهِ « خَرُب الدار خَرْبًا كأخربها » فهل هذا « مذهب ساقط او لغة متروكة » ؟

هذا بعض ما تضمّنتهُ مقالتنا السابقة من الملاحظات ولا ريب ان القارئ يرى انّها معتمدة على ادلّة واهنة لا كما رصفها الشيخ بانّها مخرّجة على مذاهب ساقطة ولغات متروكة وموجهة على وجوه من التأويل والمجاز . وقس على ما ذكرنا منها ما لم نذكرهُ حبًا بالاختصار

وقد كنّا اقتصرنا في مقالتنا السابقة على ثلاث عشرة ملاحظة والآن نضيف اليها ملاحظات أخرى غير قاصدين التعنُّت كما ذهب اليه وهم الشيخ بل اننا نؤثر ما يؤثرهُ حضرتهُ من خدمة اللغة

١ قال الشيخ في جملة انتقاداته « يقولون قد أصبح هذا الأمر اصلح من ذي قَبلُ يعنون أصلح ممّا كان عليهِ من قَبلُ فيحرفون اللفظ والمعنى جميعًا والذي يؤخذ من نصوص اللغة انّك تقول سآتيك من ذي قِبَل وقَبل اي في ما يُستقبل من الزمان »

ونحن نعجب من الشيخ كيف يريد ان يُقيّد الاقلام في دائرة ضيقة لا تخرج عنها وهو يعلم انها تأبى ان تتقيّد ما دامت اللغة تفسح لها مجال التصرُّف . ويا ليت شعري هل يمكن للشيخ ان يدّعي بان كتب اللغة تدوّن كل صور التراكيب ؟ . ومن اين لهُ ان يتّهم الكتبة بالتحريف وينسب لهم الجهل في حين ان سوادهم الاعظم من ذوي الاطلاع الذين لا يجهلون ما جاءت بهِ نصوص اللغة ؟ . وكيف يريد اجبارهم على اتباع هذه النصوص ولا يسوغ لهم ان يحتذوا حذوها ؟ . واي مانع يمنع من القول « اصبح الامر أصلح من ذي قَبلُ » اي من الذي قَبلُ قياسًا على قولهم سآتيك من ذي قَبل اي في الذي يُستقبل من الأيام . وهل صار يستحيل على من يملك القلم ان يركّب الالفاظ كما يستدعيهِ المعنى الذي يريدهُ . ولو ان كلمة « ذو » وكلمة « قَبل » غير واردتين في اللغة او ان ارباب اللغة نصُّوا صريحًا على عدم جواز تركيبهما معًا نوجب ان نقبل كلام المنتقد ولكن الحال بعكس ذلك

٢ وعاب ايضًا استعمال احتمى عن ذكر الامر بمعنى تحاماهُ قائلًا « ان احتمى لم يأتِ في شيء من كلامهم بهذا المعنى ولا سمع في كلام العامّة »

قال لسان العرب حمى المريض ما يضرُّهُ حِميةً منعهُ إياهُ واحتمى هو وتحمّى امتنع » . أفلا يجوز ان يكون المعنى في قولهم « احتمى عن ذكر الامر » امتنع عنهُ كما يمتنع المريض عمّا يضرُّهُ ؟ أفلا يسوغ في عرف الشيخ الخروج باللفظ الى المجاز الّا

في الكلمات التي نصّت عليها المعجمات او مجلة الضياء . فان صحّ ذلك وجب حذف باب المجاز من كتب البيانيين لانهم يطلقون الحرّية فيه لارباب الاقلام ولا يحصرونهُ في الفاظ وتراكيب معلومة

٣ وانكر ايضاً قولهم « اذا لا سمح الله حدث كذا او ان لا سمح الله حدث كذا » فقال « انهم يفصلون بين اذا وما أُضيفت اليه وبين إن وشرطها وكلاهما لا يجوز فالصواب تأخير الجملة المعترضة وقد وقع مثل هذا لبديع الزمان في رسالته الى الامام ابي الطيب حيث يقول وان والعياذ بالله لم يوافق مرادهُ قدراً »

والجواب ان تأخير الجملة المعترضة هنا يخفف من قوّة الكلام كثيراً فتقديمها اذاً واجب للدلالة على اهتمام المتكلم بسؤاله عدم حدوث الشرط قبل الاخبار به وهذا هو مقتضى العقل ولو ان هذا الاقحام يخلّ بشيء من قواعد اللغة لما كان جرى عليه بديع الزمان الذي كان يجب على الشيخ ان يتّخذهُ حجّة بدلاً من ان يخطّئهُ . ولا يخفى ان النحاة قد اهتمّوا فقط بصحة التراكيب دون التفات الى شيء آخر الّا انَّ البيانيين نظروا الى ما هو اسمى من ذلك اي فصاحة العبارة وبلاغتها وفي جملة ما ارجبوه تقديم المهم في المعنى ولذلك فلا نعجب من بديع الزمان اذا خالف نصوص النحاة فصل بين اذا وما أُضيفت اليه بجملة معترضة اولاً لان الذي يهمّ في عبارته هو تقديم الجملة المذكورة قبل الاتيان بفعل الشرط . وثانياً لان القواعد اللفظيّة كثيراً ما لا تراعى اذا خالفت ما هو ارفع منها اي القاعدة البيانيّة فكم من كاتب بليغ مشهود لهُ بالفضل يدرس كثيراً من قواعد النحو دوساً لاعتراضها في سبيل فصاحة التركيب . ومن شاء منّا امثلةً على صحة ما نقول فلا نضن عليه بها

٤ وانكر الشيخ ايضاً على الحرث ابن حلزة اليشكري صاحب المعلّقة المشهورة تأنيث الضوضاء في قوله:

أجمعوا امرهم بليل فلمّا اصبحوا اصبحت لهم ضوضاء

قال « فأنّث الضوضاء على توهّم انهُ من باب شحناء وبغضاء » . .

قلت وهنا وَهم الشيخ فقد جاء في لسان العرب لابن منظور « قال ابن سيده وعندي ان ضوضاء ههنا فعلاء » اي من باب فعلاء كشحناء فتقتضي كلامه اذاً انها

مؤنثة ولا يخفى على احد مقام ابن سيده في اللغة حتى كان اكثر اعتماد اللغويين عليه واين منهُ ابناء هذا الزمان ؟

وجاء في اللسان ايضاً الضوضــاة والضوضاء اصوات الناس وجلبتهم فمقتضى هذا الــرد ايضاً ان الضوضاء مؤنثة

ثمَّ انَّ قول الشيخ بتذكيرها لكون همزتهــا منقلبة عن واو لا يصلح حجَّة فهذه همزة سماء ايضاً منقلبة عن واو ومع ذلك فان سماء من الالفاظ المؤنثة

على اننا لو جاريناً الشيخ وقلنا ان ضوضاء لفظ مذكَّر فلا يمكن مع ذلك ان يخطأ الحرث بن حلزة على تأنيثهِ فقد نصَّ البـانيُّون ان الشعراء قد يؤنثون المذكَّر على تأويلهِ بمرادف لهُ مؤنث وعلى هذا القياس تُؤوَّل الضوضاء هنا بالجلَبة وينتفي وجه الانتقاد. وكثيرًا ما ورد مثل ذلك في الشعر القديم قالت الدعجاء بنت المنتشر ترثي اباها :

انى اتتني لسان لا أُسرّ بهــا من علوُ لا عجب منها ولا سخرُ

قال في الخزانة اللسان هنا بمعنى الرسالة واراد بهِ نعيَ المنتشر ولهــذا أنثت لهُ الفعل فانهُ اذا أُريد بهِ الكلمة او الرسالة يؤنث واذا كان بمعنى جارحة الكلام يذكَّر. وورد مثلهُ ايضاً في شعر المتأخرين قال فارس الشدياق:

جَبلت بهِ رأسي خلافاً للنسا

فأنَّث الفعل على تأويل الرأس بالهامة

٥ ومن انتقادات الشيخ ايضاً « يقولون هو عدوٌ لدود وهو الدّ اعداء فلان يريدون باللدود الشديد العــداوة وهو خلاف المعروف في استعمال العرب لان اللدود عندهم هو الشديد في الخصومة »

قلنا وهنا لا يصحّ انتقاد الشيخ لانَّ شدَّة العداوة تستلزم شدة المخاصمة فوصف العدوّ اذًا بشدَّة المخاصمة التي هي من لوازم شدَّة العداوة بمثابة وصفهِ بشدَّة العداوة فلا لوم اذًا على من يقول « عدوّ لدود » بمعنى شديد العداوة

٦ ومنها ايضاً انتقادهُ على العلَّامة الحريري قولهُ في مقامتهِ الحجريَّة « امَّا انك لو ظهرت على عيشي المنكدر لعذرت دمعي المنهمر » وقال ان كتب اللغة لا تذكر انكدر بمعنى تكدَّر واستشهد بمــا في لسان العرب حيث قال انكدر يعدو اسرع وانكدر عليهم القوم اذا جاؤوا أرسالًا حتى ينصبوا عليهم وانكدرت النجوم تناثرت.

وختم الشيخ ذلك بقوله « لم يحكوا فيه غير ذلك »

ونحن نكرّر القول هنا لحضرة الشيخ ان أضخم ما أُلِّف من المعجمات العربيَّة مقصّر عن الاحاطة باللغة فاذا كان لسان العرب مع سعته لم يثبت انكدر فقد اثبتها البيضاوي في تفسير سورة التكوير قائلًا انكدر بمعنى انقض او أظلم من كدرت الماء فانكدر. واثبتها غيرهُ ايضًا من مفسّري القرآن بمعنى تغيّر ولا يمكن ان نتّهم هؤلاء الائمة بالجهل والتقصير بل الواجب ان نتخذهم حجة فكان الاليق بحضرة الشيخ ابرهيم قبل الاقدام على تخطئة الحريري الذي هو من كبراء الكتّاب وجهابذة اهل الانشاء ان يحسن التدبُّر والتبصُّر

٧ ومنها « يقولون أزورهُ رغمًا عن هجرهِ لي » قال « ولا معنى للرغم هنا انما هو من التعريب الحرفي والذي يقال في هذا المقام ازورهُ مع هجرهِ لي او على هجرهِ لي وهو المعنى المراد من التعبير الافرنجي »

قلنا ان التعبير الذي يريدهُ حضرة الشيخ لا يفيد ما يفيدهُ التعبير الذي عرَّبهُ كتبة الجرائد عن اللغات الافرنجيَّة لان قولهم « ازورهُ بالرغم عن هجرهِ » معناهُ ازورهُ متغلّبًا على هجرهِ بالقهر او ازورهُ راغمًا ما القاهُ من مقاومة هجرهِ فهو اقوى وابلغ من قول القائل « أزورهُ مع هجرهِ » فان معناه ازورهُ وهو هاجرٌ لي او انَّ زيارتي لهُ يصاحبها الهجر من قبلهِ وعلى هذا فمعنى المقاومة والقسر منتفٍ من التعبير الثاني الذي يريدهُ حضرة الشيخ. فقد رأيت اذًا ان للرغم هنا معنىً حسنًا لا وجود لهُ في قولهم « أزورهُ مع هجره »

امَّا الاحتجاج بكون التعبير معرَّبًا بالحرف عن الافرنجيَّة فهذا لا يقدح في صحَّتهِ وبلاغتهِ ما دام حسن السبك ومفيدًا معنًى جديدًا وبليغًا

٨ وقال الشيخ ان البيت المشهور

خفرت بسيف الفتح ذمَّة مغفري وفرت برمح القدّ درع تصبري

هو لابن هانئ والصواب انهُ لابن معتوق وهو من الشعراء المتأخرين والبيت مطلع قصيدة يمدح بها السيّد علي خان

٩ وعاب الشيخ على بعض شعراء اليتيمة استعمالهم اصلح بمعنى صلَح وما كان حقُّهُ ان يفعل ذلك وهو يعلم انهم كانوا من ذوي الاطلاع الواسع والادب الراجح

فاستعمالهم لهذا الحرف حجة للمتأخرين لاسيما وان الثعالبي نفسهُ قد استعملهُ في كتابهِ لطائف المعارف المطبوع في ليدن في الصفحة ١٢٨ والسطر الثاني ومعلوم ان الثعالبي المكنّى بابي منصور كان في وقتهِ راعي تلمّات العلم وجامع اشتات النثر والنظم ورأس المؤلفين وامام المصنفين كما وصفهُ ابن بسام في كتاب الذخيرة

١٠ اننا نستهجن من الشيخ تعرُّضهُ لتخطئة المبرّزين من اعلم الادب وجلّة المصنفين المشهود لهم بالبراعة وسعة الاطلاع مثل الخوارزمي وبديع الزمان الهمذاني ولسان الدين بن الخطيب وغيرهم مع ان هؤلاء وامثالهم اعلى من نقد الناقدين في مسائل اللغة فقد شهد ابن خلكان ان أبا بكر الخوارزمي « كان إماماً في اللغة يُشار اليهِ بالبنان وكان احد الشعراء المجيدين الكبار المشاهير » فكيف يسوغ الاعتراض على كلمات يستعملها امام في اللغة كبير مشهور يصغر بالقياس اليهِ كل من يسمي نفسهُ لغوياً في هذا الزمان

وقال ابو منصور الثعالبي عن بديع الزمان « انهُ كان فريد الدهر وغرّة العصر لم يُلفَ نظيرهُ في ذكاء القريحة وسرعة الخاطر وصفاء الذهن ولم يُدرك قرينهُ في ظرف النثر وملحهِ وغرر النظم ونكتهِ ولم يرَ ان احداً بلغ مبلغهُ من لبّ الادب وسرّهِ وجاء بمثل اعجازهِ وسحرهِ . وكان يُنشد القصيدة لم يسمعها قط وهي اكثر من خمسين بيتاً فيحفظها كلّها ويوردها الى آخرها لا يتخرم حرف منها وينظر في الاربع والخمس الاوراق من كتاب لم يعرفهُ ولم يرَهُ نظرةً واحدةً خفيفةً ثم يعيدها عن ظهر قلبه ويسردها سرداً . وكان يُقترح عليهِ عمل قصيدة وانشاء رسالةٍ في معنًى غريب وباب بديع فيفرغ منها في الوقت والساعة والجواب عمّا فيها . وكان ربّما يكتب الكتاب المقترح عليهِ فيبتدئ بآخر سطوره ثم هلم جرًّا الى الاول ويخرجهُ كاحسن شيء واملحه »

والآن فليحكم حضرات القراء هل من كان موصوفاً بمثل هذه الاوصاف ولاسيما تلك الذاكرة الغريبة والمبلغ العظيم من الادب يُتصوَّر انهُ لا يحفظ قواعد لغة العرب حقّ حفظها او يجهل مناحيها الفصيحة وتعابيرها البليغة وهل يسوغ الانتقاد عليهِ في امور كان هو اعلم بها واعرف ؟

واما لسان الدين بن الخطيب فقد وصفهُ مؤرّخو زمانهِ بانهُ المثل المضروب في الكتابة والشعر فكيف اذاً تسوغ تخطئة من كان مثلاً مضروباً في الكتابة والشعر .

ولو ان الشيخ مثلاً انتقد بعض المعاني في كتابة المؤلفين المشار اليهم او قال ان بعض مناحيهم في التعبير صارت اليوم مهجورة لكان في الامر ما فيه ولكنهُ يعيب عليهم استعمال بعض الالفاظ بحجة انها غير واردة في المعجمات وهي حجّة لا معوّل عليها لان هؤلاء المؤلفين ممّن يصلحون ان يُعتمَد عليهم في اللغة كالمعجمات

١١ بقي علينا ان نقول ان تخطئة حضرة الشيخ ابرهيم لشعراء الجاهليّة هي ايضاً في غير محلّها بل لا تجوز بحال من الاحوال. فقد خطّأ عدي بن زيد في استعماله موثوق بمعنى موثق وقال انّا وقع لهُ ذلك لانهُ كان قرويًا كما ذكر الاصفهاني في ترجمته »

وباليتهُ قال ان استعمالهُ موثوقاً بمعنى موثق لغة قرويّة غير فصيحة لكان الامر محمولاً ولكن نسبة الخطاء اليهِ تهوّر من الشيخ لان عدياً من الذين جُمعت عنهم اللغة واذا كان قرويًا فقرويّتهُ لا تدلّ على انّهُ يخطئ في ما يستعملهُ من التعابير والالفاظ بل غاية ما يمكن تقديرهُ انهُ لمّا كان من اهل القرى استعمل كلمات وتعابير غير مألوفة عند اهل المدن ولذلك عدّوها خارجة عن دائرة الفصاحة في ذوقهم ولو انها كانت في أعلى درجة من الفصاحة في ذوق اهل القرى

ولعدي بن زيد منزلة عالية بل ممتازة في اللغة حتى ان اصحاب المعجمات كثيرًا ما يستشهدون بشعرهِ كما يعرف ذلك من طالع لسان العرب. فكما ان من هو اسبق من اصحاب المعجمات لا يصحّ لاصحاب المعجمات تخطئتهُ لانهم يجمعون ما يجمعون عن كلامه وكلام أمثالهِ. كذلك من يستشهد بهِ اصحاب المعجمات مستندين الى نظمهِ لا يحقّ للشيخ ابرهيم تخطئتهُ. او لم يكن الأخلق بهِ بعد ان وجد في كلام عدي ما ليس في المعجمات ان يُحيل الذنب على اصحاب المعجمات قائلاً انهم لم يجمعوا كل لغة العرب بل فاتهم منها شيء كثير مثل وثق مثلاً بمعنى اوثق ويمثل ذلك ببيت عدي

امّا كون المعجمات لم تحط بكل اللغة فهو ظاهر ظهور الشمس وما كنّا نظنّ ابدًا ان حضرة الشيخ الذي قد طالما « كدّ ذهنهُ واسهر جفنه في تقليب الصحُف » يغيب عنهُ أمر كهذا

ولو رجعنا الى رأيهِ لكان يجب ان نخطئ من يستعمل « القلّاع » بمعنى قالع الاضراس قائلين كما يقول « انهـا لم ترد في شيء من كتب اللغة بهذا المعنى وان كان

لها وجه في القياس » وذلك لانهُ لم يذكرها احد من اصحاب المعجمات ما خلا الزمخشري ذكرها في غير مادَّتها

ولكان يجب ايضاً ان نخطِّئ الاخطل في استعمالهِ كلمة « وغَّال » بمعنى الذي يغلي الثمن غير حافلين بمنزلتهِ من الفصاحة ومقامهِ من اللغة ونقول ايضاً مع الشيخ انها « لم ترد في شيء بهذا المعنى في نصوص اللغة »

ولكان يجب ان نخطِّئ الامام عمر في استعمالهِ « بارح » بمعنى فارق فقد ورد في كلامهِ « فما بارح الارضَ حتى فعل الثلاث »

ولكان يجب ان نخطِّئ كل من يستعمل « اتَّفق » بمعنى وقع عرضاً لانهُ لم يذكرها احد من اصحاب المعجمات مع كثرة استعمالها

وكذلك يجب ان نخطِّئ صاحب اللسان في قولهِ بمادَّة حصر « الاختصار في الكلام ان تدع الفضول وتستوجز الذي يأتي على المعنى » ومعنى تستوجز تختصر وهذه لم يذكرها صاحب اللسان ولا غيرهُ في مادَّتها

وكذلك يجب ان نخطِّئ أبا تمام في قولهِ « بموجزة يرفض من وقعها الدم » اي بطعنة سريعة اخراج الدم . ولم يذكر الموجزة بهذا المعنى احد من ارباب المعجمات . وكذا يتعيَّن أن نخطِّئ أبا الاسود في استعماله مملاقاً بمعنى الكثير الشايق في قولهِ « من لم يشب ليس مملاقاً حليلتهُ » . وكلّ احدٍ يعلم ان جميع الذين تقدَّم ذكرهم هم وأمثالهم حجة في كل ما يستعملونهُ من الفاظ اللغة فالتعرّض لتخطئتهم تهور

هذا ولو شئنا ان نكثر مما اغتلتهُ اقلام اللغويين واستعملهُ مشاهير الشعراء والبلغاء قبل الجاهليَّة وبعدها لطال بنا الامر وفي ما سبق كفاية وتبصرة للاريب

كتاب
تاريخ بيروت

لصالح بن يحيى (تابع لما سبق)

ولنرجع الآن الى ذكر زين الدين فنقول انَّ المذكور كان يتعاطى اعمالاً لطيفةً جدًّا من النجارة . وقد رأيت من صنعتهِ اقفالاً صغيرة لطيفة القدّ من خشب النارنج والعنَّاب تزل فيها تطاعيم ظريفة وكان يهديها الى اصحابهِ من باب اللطافة والمحبة